# الأوفياء ... أنقذوا السيارة الغارقة

**كان الجو عاصفا، وشديد البرد، والرؤية غير واضحة. وجاءت السيارة النقل واقتربـت مـن حافة النيل لتكون بقرب الحجارة المطلوب نقلها. وفجأة فوجئنا بالسيارة تتزحلـق، وتهـوي، وتختفي تماما تحت الماء**

**ولم أعرف ماذا أفعل؟ ولم أجد أمامي سوى الأوفياء... سكان قرية مزغونة، لأسـتنجد بهـم. تصوت أن من الممكن أن يأتي معي خمسة أو عشرة من أبناء القرية الـذين تعارفـت علـيهم وصادقتهم ولكن المذهل – حقيقة – أن يهب عشرات من أهل القرية الذين اعرفهم والـذين لا أعرفهم وتسابقوا جميعا من أجل البحث عن وسيلة لانتشال السيارة الغارقة تحت الماء**

## الأوفياء ... أنقذوا السيارة الغارقة

كنت أعتقد أنني نجحت في إخفاء شخصيتي الحقيقة، عن جميع اهل القرية التي قامت فيها خلال الفترة التي عملنا فيها هناك، في نقل الحجارة القادمة من طرة عن طريق المراكب النيلية، وننقلها بالسيارة إلى مكان رصف الطريق عند قرية مزغونة.

فالذي كان يراني في تلك الأيام لا نتصور أن هذا الرجل الواقف امامه، الذي أطلق لحيته وارتدى الجلباب ويشرف على نقل الحجارة بالسيارة النقل القادم بها من القاهرة هو نفسه ضابط الجـيش الذي استطاع أن يهرب من المعتقل، ويختفي عن الأنظار، ثم يظهر في كل مكان – بعد ذلك- في شخصية جديدة، ولا يشتبه فيه أحدٌ

امضيت عدة أيام في قرية مزغونة، تعرفت خلالها على معظم سكان القرية وسكنت فـي شـقة صغيرة باحد منازلها وجالست أهلها في المقهى والمطعم ولم أشعر بأي قلق أو خوف من انكشاف حقيقتي .....

ولكن سرعات ما فقدت هذا الإحساس بالأطمئنان، عندما جلست أقص شعر رأسي عنـد حـلاق القرية الوحيد، ففوجئت بعربة جيش تقف أمام محل الحلاقة، الذي يطلق عليه صاحبه" صـالونا" – وينزل منها ضابط جيش نظر إلى ولم يبد أي حركة يفهم منها أنه عرفني، أو يشك في أمري. لم يحاول أن يتحدث معي ولم يعر حديثي مع الحلاق أي اهتمام. فتوهمـت أننـي نجحـت فـي خداعه....

وغادرت صالون الحلاقة، واثقا في أن كل شيء على ما يرام. وأن أحدا لن يكتشف حقيقة الحاج محمد نور الدين.

ولكن سرعان ما تبددت تلك الثقة، في اليوم التالي مباشرة....

كنت في طريقي لتناول طعام العشاء في المطعم الوحيد بالقرية، عندما مررت من أمام المقهـى، ففوجئت بالحلاق جالسا ومعه ضابط بوليس النقطة!!

وكانا يتبادلان الحديث الخافت، ثم توقفا – فجأة- عن الحديث بمجرد ظهوري أمامهما! أو هكـذا تخيلت .....

وواصلت سيري حتى المطعم، وجلست وحيدا أتناول طعامي دون أن أتذوق له طعما. فقد كنـت في حالة يرثى لها. كنت واثقا تمام الثقة في أن الحلاق كان يتحدث لضابط البوليس عني.

**وإلا.... فلماذا كل هذا الاهتمام بالحديث، الذي سرعان ما توقف بمجرد اقترابي منهما؟!**

**أخذت أتخيل ماذا قال الحلاق عني؟ وماذا سأل ضابط البوليس ؟ وماذا كان الاتفاق بينهما؟**

**وتتابعت أسئلتي...**

**وازدادت حيرتي....**

**ولم أعرف كيف أتصرف، ولا ماذا أفعل!**

وانتهيت من تناول طعام العشاء، وغادرت المطعم إلى منزلي مباشرة لم أكن في حاجة إلى الجلوس مع العمال في المقهى، كعادتنا في كل مساء، كنت أريد أن أختلي بنفسي داخل غرفتي أفكر في أمري وفي كيفية مواجهة هذه المشكلة التي يمكن أن تقلب كل ما خططته لنفسي في هذه المرحلة.

ولم أستطع أن أنام في تلك الليلة. ولم ينقذني من القلق، والتفكير إلا ظهور الشمس فـي صـباح اليوم التالي، فغادرت فراشي، والمنزل مبكرا وذهبت إلى العمل لأنسى فـي زحمتـه مخـاوفي وشكوكي. وبالفعل استطاع العمل، ومشاكله أن يبعد تفكيري الورطة التي وجدت نفسي- فجأة- مطالبا بمواجهتها!

وعند الغروب توقفنا عن العمل فعاد بي التفكير إلى مالا يمكن تجاهلـه، أو تأجيلـه فقـررت أن أذهب إلى الحلاق لأضع حدا لشكوكي وظنوني وبالفعل توجت إلى صالون الحلاقة، ولـم أهـتم بالتوقف قليلا عند منزلي، أولا لأغسل وجهي وأغير ملابسي وقام الحلاق ليرحب بي- كعادته- بنفس الحفاوة التي عودني عليها من قبل. فالرجل كان – على ما يبدو- معجبا بشخصي فهو كثير

السؤال في قضايا كثيرة ووجد مني فهما غير الذي تعود عليه من باقي زبائنه من أهـل القريـة البسطاء.

وصافحته، وحاولت أن أجد أي مبرر لزيارتي له، للمرة الثانية في أقل من ٢٤ ساعة. ولم أجـد على قسمات وجهه أية دهشة، لحضوري إلى صالونه بل تأكدت فيما بعد من انه كان يتوقع تلـك الزيارة مقدما!

وجدته يبتسم لي، ويقول ووجهه كله ينطق بالسعادة والزهو بذكائه:

- اسمع يا حاج محمد... أنا ما تهتش فيك !
- وكانت مفاجأة عنيفة لم أجد ما أقوله ردا عليها سوى الصمت، انتظارا لسماع المزيد من مفاجأته.

وعاد الأسطى الحلاق يقول :

- الحقيقة أن الضابط زميلك في الجيش عرفك، وقال لي كل شيء عنك!

ولاحظ الحلاق علامات الاضطراب بادية فوق وجهي فأسرع يقول لي مهدئا ومطمئنا:

- إياك أن تظن أنني قلت عنك كلمة واحدة لضابط البوليس الذي رأيتني معه في المقهـى، أمس.
- اطمئن .. فأنت لا تعلم كيف ازداد أعجابي بك، عندما سمعت عن شجاعتك وعن كفاحك من أجل بلدك وأهلك من زميلك ضابط الجيش الذي تكلم عنك بكل حب وخير.

وانتهى حديثي مع الحلاق:

وأكبرت في الرجل موقفه الذي لا يمكن أن أنساه.

لقد تعرفت عليه، وقدمت له نفسي كمقاول نقل بضائع. وشاءت الصدف أن يكتشف هـو بنفسـه حقيقة أمري. ولعى الرغم من ذلك لم يحاول أبدا أن ينطق بكلمة واحدة عني. لم يذهب إلى ضابط البوليس ليبلغه بالنبأ الهام. ولم يفكر لحظة واحدة في المكافأة المالية الضخمة التي كان يمكـن أن يحصل عليها من البوليس مقابل المعلومات التي إن تقدم بها، أدت إلى القبض على، وترحيلي إلى المعتقل مرة أخرى!

لم يفعل الرجل شيئا من هذا كله لم يخن ضميره ولم يضعف أمام إغراء المال، واحـتفظ بالسـر لنفسه ولم ينطق لأحد بكلمة واحدة، رغم ما عرف عنه من عشق شديد للحـديث فـي الفاضـي والمليان!

وهذا هو المصري الحقيقي ...

وهذه هي مصر، الأم التي أنجبت فأحسنت وملأت أرضها بأبنائها المخلصين، الأوفياء.

واستعدت اطمئناني على نفسي، وواصلت إشرافى على عملية نقل الحجارة. بالسيارة النقل، إلـى مكان رصف الطريق الطويل الذي يصل بين القاهرة وأسوان.

وكما قلت في حلقة الأسبوع الماضي أننا كنا ننقل الدبش من موردة المرازيق – وكلمـة مـوردة تعني المكان الذي تقف عنده المراكب النيلية لتفريغ حمولتها من الركاب والبضائع – ثـم انتقلنـا لننقل الحجارة الدبش من موردة مزغونة، بدلا من موردة قرية المرازيق.

ولم نخطئ هذه المرة كما أخطأنا في المرة السابقة، عندما عملنا في موردة المرازيق قبل أن نتفق مع المسئول عن الموردة والذي يتقاضى أتعابه من كل مركب تقف عنده لتفرغ حمولتها، ومـن كل صاحب سيارة نقل تنقل بضائعها من تلك المنطقة في هذه المرة لم نبدأ عملنـا فـي مـوردة مزغونة، إلا بعد أن تقابلنا مع الشخص المسئول عن موردة المرازيق من أجل أن أعتـذر لـه، وأرد له حقه الذي اكتسبه في تلك المنطقة.

وأمضينا الأيام الباقية على انتهاء عملية نقل الدبش- الذي يطلق عليها اسـم "بـردورة" – التـي تعاقدنا عليها وأوشكت على الانتهاء في تلك القرية، بعد أن ازدادت معرفتي بأهلها، وتصـادقت مع معظم سكانها. وكنت أجد سعادة حقيقية خلال الساعات التي كنت أجالس خلالها أهل القريـة واستمع إلى مشاكلهم وأحلامهم وآمالهم.

حياة القرية لم أجد فيها الجديد فأنا قادم أصلا من الريف عشت فيه أجمل سنوات عمري وفي كل مرة كنت أجد فيها وقتا يبعدني عن المدينة كنت أسارع إلى القرية بعاداتها وتقاليدها.

الجديد- بالنسبة لي والذي وجدته خلال إقامتي في تلك المنطقة الريفية – فقـد وجـدت لـدى " المراكبية " الذين كانوا يقومون بعملهم بإتقان، وخبرة ويصعب جدا تصور أنهم لم يتعلموه فـي أرقى المعاهد البحرية!

فالذي رأيته منهم بهرني حقيقة وكثيرا ما كنت أراقب حركة المراكب النيلية وأتـابع تعليمـات " ريس " كل مركب التي يبادر رجاله بتنفيذها على الفور، مما دفعني إلى الجلوس أكثر من مرة مع " ريس " المركب واستمع إليه استفسر منه عن أسرار عالم الملاحة الذي لم اكن أعرف عنـه أي شيء قبل أن أحضر إلى تلك المنطقة.

وهو عالم غريب.... وعجيب...

ذات يوم فوجئت بعدد كبير من المراكب. بالقرب من الموردة ووضح أنها لا تتحرك, وليس هناك ما يستدعي تواجدها في هذا المكان، فلا هي تفرغ حمولتها، وليس هناك – على الأرض- ما يمكن نقله إليها!

**وسألت عن سبب تواجد هذا العدد الكبير من المراكب المختلفة الأشكال، والأحجام، فالعمل – بالنسبة لنا – لم يتوقف، ولا يجب أن يتوقف، والحجارة التي نقوم بنقلها، تأتينا بالمراكب النيلية من طرة. وكان الخوف الأكبر أن لا تأتي تلك المراكب، أو أن يزداد عدد المراكب الواقفة أمام الموردة، فلا يسمح بدخول مراكبنا المحملة بالدبش، وفي هذا خسارة لنا.**

**وسمعت من المراكبية، أخر ما كنت اتوقعه....!**

**قالوا لي أن حركة الملاحة في النيل يجب أن تتوقف – في تلك المنطقة – لأننا ننتظر " نوه" خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة!**

**هكذا عرفوا، تنبأوا بنشرة الأحوال الجوية، والملاحية، كأحسن ما تكون النشرات التي يصدرها خبراء مصلحة الأرصاد الجوية!**

**وقالوا لي أن الجو سينقلب والرياح ستشتد، ولذلك فإن عليهم أن يقفوا بلا حركة في منطقة " متغطية" – على حد تعبيرهم- حتى يتحسن الجو، بعد انتهاء " النوة" التي تنبأوا بحدوثها.**

**والمدهش أن كل ما توقعوه، حدث بالفعل....!**

**تكهرب الجو واكفهر واشتدت الرياح وساءت الرؤية وتعذرت، وتوقفت الملاحة تماما في نهر النيل،** ودخل الملاحون إلى بطن مراكبهم، وجلسوا داخلها بعيدا عن البرد القارس فوق السطح. أما نحن فقد واصلنا عملنا في نقل الدبش، الذي كان قد وصل قبل أن تبدأ النوة، وقبل أن تتوقف حركة الملاحة، تماما.

في هذا اليوم شديد البرودة، شديد الرياح وصلت سيارتنا النقل، القديمة العتيقة وهي طراز " فورد" القديم جدا وكعادة السائق فإنه عندما يصل إلى الموردة فإنه يدخل إليها بمؤخرة السيارة، وليس بمقدمتها، وذلك حتى يسهل نقل الدبش إليها.

وهذا ما حدث بالفعل، وجاءت السيارة وتوقف السائق ثم دار بها نصف دائرة ودخل المورده بمؤخرة السيارة حتى توقف بالقرب من حافة الطريق وعلى بعد خطوة واحدة من النيل. وفجأة رأينا السيارة تنزلق ناحية النيل، وتسقط في مياهه وتختفي في أعماقه حدث هذا في ثوان لم نصدق ما رأيناه! تصورنا أننا نحلم. أو أن سوء الرؤية، وشبه الإظلام نتيجة اختفاء قرص الشمس وراء السحب الكثيفة- هما السبب فيما تصورناه حقيقة....

وهو حقيقة بالفعل!

وكانت كارثة، بكل المقاييس ....!

ولم نعرف كيف نتصرف، ولا ماذا نفعل؟

تصورنا أن السيارة فقدت، ويعوضنا الله عنها.....

فالسيارة اختفت تماما تحت سطح الماء. ومعنى ذلك أنها على عمق بعيد.

فكيف يمكن انتشالها، وسحبها؟

ولم نجد حلا ....

ثم تنبهت – فجأة- إلى أنني في الريف.بين الأوفياء بين أبناء شعبنا العظيم، والذين نجدهم دائمـا عندما تواجهنا الصعاب، والأزمات.

ولم أتردد.....

وذهبت – على الفور- إلى قرية مزغونة التي عرفت أهلها، وعرفوني، وتقابلت مـع بعضـهم وحكيت ما حدث لسيارتنا في كلمات معدودة وكما توقعت تماما وجدت أهل مزغونة يهبون جميعا كرجل واحد، وبعزيمة واحدة وسبقوني في الذهاب إلى المكان الذي سقطت فيه السيارة في النيل.

**قلت أنني تحدثت إلى عدد من سكان القرية يعدون على أصابع اليد الواحد ففوجئت بعشرات من رجال وشباب وشيوخ القرية يتسابقون للوصول إلى مكان الموردة التي سقطت عندها السيارة. جاءوا بلا دعوة. أرادوا المشاركة في إنقاذ السيارة، بلا تكليف من أحد سوى حبهم لعمل الخير وحرصهم على مشاركة غيرهم في مواجهة مشاكلهم، وأزماتهم. وهذه هي أخلاق القرية التي لا تتغير، ولا تتبدل أبدا.**

ووقفنا جميعا عند الحافة، نفكر فيما يمكن عمله، ولم تمض سوى دقائق معـدودة، إلا وفوجئـت بشاب قوي- من أبناء قرية مزغونة، يخلع ملابسه- في عز البرد القارس الذي حدثتكم عنـه – ويقفز بلا تردد ويختفي في النيل! لم يطلب منه أحد أن يفعل ما فعل ولم ينتظر – هو- أن يطلـب منه ذلك، ولم يتوقع أن يتقاضى مالا مقابل ما يفعله وما قد يتعرض له من مـرض، أو إصـابات تصرف من تلقاء نفسه، واتخذ قراره تلقائيا....

وبعد فترة قصيرة- وحرجة جدا- عاد الشاب وظهر بعد أن توغل تحت الماء، وعـاين المكـان الذي استقرت فوقه السيارة الغارقة.

وبعد أن حددنا المكان، بدأنا نواجه كيفية انتشال السيارة..... !

واستمعت إلى اقتراحات عديدة ...

وفي النهاية جاء ريس مركب بالحل. قال لي:

- أولا أحمد ربنا إن السيارة كانت فارغة، وإلا استحال انتشالها واطـئمن فسـوف تـرى سيارتك واقفة أمامك هنا بعد قليل!

- ودون أن ينتظر سماع كلمة شكر واحدة، رأيت ريس المركب يقفز إلى داخـل مركبـه، ويختفي لحظات في بطن المركب، ثم يعود إلينا حاملا حبلا سميكا من الحديـد، الـذي يطلق عليه اسم " واير" .. وخلع ملابسه، وغاص في النيل ومعـه مسـاعدوهم ومعهـم والواير الحديد.

- ومرت لحظات تصورتها ساعات، قلقت خلالها على هؤلاء الأوفياء الذين اختفوا تحـت الماء، وغابوا في الأعماق، بلا أسطوانة أوكسجين وبلا ملابس غوص وقـاموا بـربط السيارة الغارقة بطرف الواير الحديد من الأكسدام، ثم عادوا وظهروا أمامنـا، ومعهـم الطرف الآخر ووضعوا طرف الحبل في ماكينة الجذب- فوق المركب، والتي تسـتخدم في إنزال الهاب" الخطاف" وسحبه ودارت الماكينة، فلـف " الحبـل الحديـدي حـول اسطوانتها وبدأ – بالتالي – سحب السيارة الغارقة.

- وبعد دقائق فوجئنا بالسيارة تظهر فوق سح النيل، شيئا فشـيئا، حتـى تـم – بالفعـل- انتشالها، وتم إخراجها وتثبيتها فوق الأرض!

**شيء لم أكن أصدقه، ولم أكن أتوقعه. ولكنه حصل ولا فضل لأحد فيه، سوى هؤلاء الأوفياء الذين لم يتعلموا في المدارس، ولم يتخرجوا في الجامعات، ولكن الذكاء الفطري المصري، هداهم إلى حل مشكلة تصورت لآخر لحظة استحالة حلها.**

استطاع هؤلاء الأوفياء أن يقوموا بعملهم الكبير. ولم يطالبوا بثمن ما قاموا به . عرضت عليهم مالا، فرفضوه بمنتهى الشدة، والاستنكار وقالوا لي:

- كيف تنتظر منا أن نقبل مالا مقابل عمل الخير؟ كيف تنتظر منا أن نوافق على قبول ثمن ما تعلمناه من قيم، ومن تقاليد، ومن عادات عرفنا بها، وحافظنا عليها.

- انك لم تطلب منا أن نساعدك في حل مشكلتك، ونحن الذين بادرنا بتقديم هذه المسـاعدة، بل هذا الواجب.....؟

- ولم أعرف كيف أشكرهم ....

- ولم أتمكن من رد جميلهم....

- كل ما خفف عني، هو أنني رأيتهم سعداء بما فعلوه من أجلي. وشعرت حقيقة بإنهم قاموا بما فعلوه، بناء على ما تعودوا عليه.
- لم يكن الأمر مجاملة لي. فلم أكن أملك شيئا ينفعهم، أو يضرهم، وإنما قاموا بعملهم كما يمليه عليهم ضميرهم، ووفاؤهم.

**أنور السادات.**

www.anwarsadat.org